نظام الحب والبغض — تابع وتتبع

(حب الزينة وحب التميز)

ولست من محبي الامور الفانية ولا المغرورين بها ولكني أحب ذلك السر الرباني الذي به انلم خواص هذه الامور مفردة ومركبة . وبه تصرف فيها على أمثلة لا يحيي مجموعها عقل واحد . وانكم لتعلمون ان ذلك السر الرباني الذي اودعناه من أعظم خواصه محبة الجميل .

وحرام على من لم يروا ببصائرهم شيئاً من اسرار الصنعة الالهية ان يخوضوا في علم الاخلاق وعلم شرائع الاجتماع .

احفظ لي أيها القاريء هذا الكلام لعلك تتذكر وتتدبر اذا فاجأتك في مخالفة لبعض كتاب هذا العلم .

لحياة الانسان لوازم : هن حاجاته الضرورية . والحيوانات تشاركه بنظائرها . وتوابع : هن حاجاته الكمالية . وليس للحيوانات حظ بأشباهها . ويمكننا باعتبار الاولى والثانية ان نقسم حياته الواحدة الى قسمين : حياته الجنسية . وحياته النوعية .

الحياة الجنسية يمكن حصر مابه قوامها . فالغذاء قد يكون من الاعشاب كدأب آكلة النبات من الانعام وغيرها . وليس هذا مبنيا على خيال شعري يعظمه الزهد فيما تقبله طبيعة الانسان بل هو مجرب محسوس أثبته لنا بالفعل قوم أوحى اليهم الوهم ما أوحى من نبذ ماخلقه الله للبشر .

والإواء قد يكون حجراً كأوجار الوحوش . وقد أتاح الله لنا ان نشاهد بالذات معيشة بني هذا النوع في الغيران ولا أعني بالذين شاهدناهم قوما من اخوان الوحوش في السيرة والطباع والانقطاع عن الانس . بل هم فئات من زراع هذه البلاد أولو ناغية وراغية وأولو حرث في بلاد ذات زرع وحب الحصيد .

والكساء قد يستغنى عنه وقد يكون من جلود الصيد أو الانعام . ولدينا قبيلة يقال لهم الصُّلَيب لم نشاهد من اكسيتهم غير جلود الآرام التي جل غذائهم من لحومها . والوقاع لايحتاج منه الى أكثر مما في طبيعة النوع من نواضر أنثى وفحل وأغذيتهما

لهذا الامر يسابق ما في الفطرة .

وبهذا القدر الذي مثلنا به تحفظ الاشخاص ويبقى النوع كما حفظت أشخاص السوارح المجماوات وأنواعها .

قلنا ان هذا القدر يمثل لنا الحياة التي يمكن ان يعيش بها الانسان ويتناسل . وهل يمكننا أن نقول يوجد شيء يميز الانسان عن باقي الحيوان في هذا المثال من الحياة ؟ . قد كان يمكننا ان ندّعي وجود مميز لو كان له مع هذه الحياة أفكار عالية . وهيهات فقد أبانا التاريخ ان الانسان كان معدما من الافكار العالية يوم كان يعيش مثل هذه المعيشة وكذلك بلونا الذين يحيون هذه الحياة في يومنا فلم نجد لديهم اقل إدراك يمتازون به على الغابرين . بلى ان وعد الله حق وان الانسان بمجموعه ارتقى ولكن كان ذلك منذ طفق الاستعداد النوعي تتجلى مظاهره ، وتتجلى مناظره ، ولن يبرح في رقيه مادامت الغبراء في ازاء الزرقاء تتجلى عليها شمسها وتؤتيها من لدنها نظاما .

عرّفنا لكم الحياة الجنسية بالتمثيل وبه أوضحنا قولنا انه يمكن حصرها به قوامها . أما الحياة النوعية فمن الصعب جعل حدّ لما يتعلق بها كما كان من الصعب تحديد الاوهام والافكار التي هي تابعة لها . ولكن يمكن ان نقول ان أكثر الاشياء التي هي من فروع الحياة النوعية تابعة لناموسين عظيمين من طبيعة النفس الانسانية هما (١) حب الزينة و(٢) حب التميز . ونتكلم فيهما على الافراد لشدة العلاقة بينهما .

﴿ حب الزينة ﴾

نأخذ من التمهيد المتقدم كلمة نقولها هنا : لو كان الانسان هو الآكل المواقع لكان من السهل في معرفة ما هو ان نقول « هو آلة من جملة هذه الآلات الكونية المتحركة بأصل صنعها » ولكن هنا فصول وقيود كثيرة زائدة على هذين الوصفين لا نريد الآن ذكرها كلها بل ذكر واحد منها وهو كونه « محباً للجميل » . فهذا القيد وحده يمنعنا ان نقول في تعريفه ذلك الكلام ويجعلنا نتفكر وسعنا في خصائص هذا المخلوق الكريم المصنوع لامر عظيم .

من تأمل في الانسان وجد العوالم محشورة في ذرات صغيرة من مواقع ادراكه ، ووجده محكوماً فيها بأحكام كثيرة لو زلم تتلها يده ، بعض تلك الاحكام له نسب بالحقيقة متصل ،

وبعضها له سبب الى طائف الوهم ممدود .

أما الذي يتعلق بالوظائف الطبيعية لحياته الفكرية من تلك الاشياء المتكثرة فهو تقسيمه المحسوسات والمتخيلات الى قسمين مستحسن محبوب ، ومستقبح مكروه .

— ماهو الحسَن ، ماهو الزين ، ماهو الجميل ؟ —

الحسن والزين والجميل كالحسن والزينة والجمال ، الفاظ متعددة تدل على معنى واحد عند روّاد اداب البيان . وعلى معان متقاربة عند روّاد القشور . وتعدد الالفاظ مع توحد المعنى (وهو الذي يسمونه الترادف) لاعيب فيه على لغة لانه كتعدد الحلل لكاسية واحدة . ولكن بعض المتورعين في حفظ الدلالات اللغوية من طوارق النسيان يجتهدون ان لا يثبتوا الترادف بادعاء معان متقاربة أو فروق لاتكاد تذكر في مثل هذه المترادفات ولا نعيب فعلهم هذا فان له فوائد ولكن نسألهم ان لا يعيبوا قولنا بترادف هذه الكلمات التي رمنا بتعديدها تفسير بعضها ببعض وبيان ترادف ما اشتقت منه ليتم من قولنا « حب الزينة » اعلام بحب الجمال الطبيعي كالصناعي وقد حملنا على هذه الايضاحات ما نعلمه من تفريق الاصطلاح وأهله بين هذه المتحدات تفريقا افضى الى تشتيت المفهوم . وهنا استغفر من هذا الاستطراد الطويل وان أوجبه المقام .

نعود الى معرفة حقيقة الحسن الزين الجميل ثم نسأل نفسنا وغيرنا ماهو الحَسَن؟ ماهو الحُسْن ؛ ماهو الاستحسان ؛ ماهو حب المستحسن؟ لماذا نستحسن؟ لماذا نحب الحسن؟ لماذا نختلف بالاستحسان ؟ ماهو عشق المستحسنات الذي يميل بكل نحو مستحسن فيغرم به ؟ هذه مسائل تخطر في بال كثيرين ولكن قل ان تجد في حجرات السرائر مقرا تقيم فيه برهةً طويلةً . أستدل على ذلك بعدم ثبات ارادتنا مشربي النوع اللهم الا قليلا من أحكم الحكماء الذين تزكت أرواحهم فكانوا بالأسرار من العارفين ولا جناح علي ان اعترف بأني لا أملك تلك الملكة التي بها يتيسر الجواب عن كل مسئلة من هذه المشروحات . ولكني أظن ان هذا لا يكون مانعاً من عرض ما استفاده الفكر من ملاحظاته في عالمي الشهادة والغيب . فاشدد ما ساح في هذين العالمين في سبيل اكتشاف هاتيك الشؤون .

(١) ماهو الحسن ؟ — نجيب عن السؤال الاول جواباً يفتح كل مغلق امامه

من المسائل فنقول :

الحسن ان كان محسوسا فهو مابني بالحاجات ويزيد عليها أمور اتنبسط النفس بمرآها لمناسبة ماخفية تقدح في النفس ويظهر للقارئ ان هذه المناسبة ببقائها خفية بقي الكثير من اسرار الاستحسان في المحسوسات غامضا وستأتي زيادة بيان ،

وان كان الحسن غير محسوس فهل هو مايستحسنه كل عقل لنفسه؟ كلا بل هو ماتتفق العقول السليمة كلها أو جلها على استحسانه ويجب ان نصرح هنا بأنه لاعبرة بكثرة الذين يستحسنون الشيء تقليداً بل العبرة بكثرة الحكماء الذين يستحسنون الشيء عن طول تفكر . واذا وجدناهم مختلفين في شيء وفي جانب كل حزب كثرة فان لاصحاب العقول من أهل الزمان الذي هم فيه ان يتفكروا كما يتفكرون ولهم ان يصرحوا باستحسان ما استحسنوه فليس ثمة اغلال للافكار . ويحتاج في الاذهان ان حرية الاستحسان في غير المحسوسات توجب انفراجا واسعاً بين الافراد . وانه ليكاد هذا الظن ان يكون صواباً لولا سببان عظيمان احدهما ان توسع حاجة النوع الى الاجتماع وتوسع حاجته في الاجتماع قد ضيقا بالتدريج ذلك الانفراج من قبل ان يتسع اتساعا عظيما، اذ كما تتسع أشياء من الضيق تضيق أشياء من السعة . الثاني ان السلم الذي رزقه مجموع النوع قد قارب بين الافكار بأنواع خاصة — سيجيء بيانها — وبهذا التقارب صار الافراد الذين لايحصون جماعات تحصى . ومن المشاهد ان لكل جماعة مستحسنات عامة لايستنكرها الافراد وان لم تكن حسنة في الحقيقة لانهم مقلدون . واكثر هؤلاء الجماعات يذهبون الى ان الحسن ماحسنته مذاهبهم الدينية على انه مهما بالغ المبالغون في حبس حرية الافكار فلا يسعهم مناقشة الناس اذا بدا لهم ضد ماحسنته المذاهب بل يضطرون الى المجاملة بضروب من الاصطلاحات معروفة لمن مر بتلك الابواب . وبمثل هذا كانت ولا تزال تحصل التغيرات في العالم ويجب ان لانكتم ان حكماء الناس هم حكام الافكار ولكن قد تصير فترات تضيع فيها الحكمة ويقوم أناس ينتحلون لانفسهم هذه الوظيفة بصبغة أخرى فيحيون ضالين مضلين . وفي هذه الايام يصير غير الحسن حسناً .

يقضي على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

هذا والمقام يحتاج الى فضل بيان ولكننا اجملناه اجمالا فمن لم يع مافي باطنه كفاه

ظاهره الواضح.

وسواء كان المستحسن مستحسن جماعة أو مستحسن فرد من محسوس أو متخيل لايمكننا تعليل وجه الاستحسان في كل شيء ولكن نعلم ان العلة العامة فى استحسان الاشياء هي مناسبة تنقدح فى النفوس . ونعلم ان استحسان كل شيء علة محبته والاهتمام به على مقدار درجة المحبة (اذلها درجات) . ونعلم ان هذه الاستحسانات من حيث هي — طبيعية فى النوع . ونعلم انها هي التي أوصلت مصانع الانسان الى هذه الصورة الباهرة الساحرة. ونعلم أن هذه المصانع من الميزات العظمى لهذا النوع. ونعلم ان الانسان سيتسامى رقيه مادام يستحسن ويسعى وراء مايستحسنه باهتمام يسوق، وأمل يقود، وعزم يعين.

واجب التربية نحو التعليم

شكوى الامهات من تربية البنات

لما نشر المقطم شكوى نساء الانكليز من تربية بناتهن فى هذا العصر طلب ان يعرف رأي الامهات فى بناتهن فى مصر فكتب اليه من بعضهن الشكوى فى إثر الشكوى من سوء حال تربية البنات المتعلمات وكونهن لايحفلن بغير اللهو والزينة والعزف بالبيانو ونحو ذلك من الترهات. ولم تصادف هذه الشكوى أقل اهتمام من البنات ولا دفاع عن أنفسهن وقد توالى الحث عليهن من المقطم وكثر الترغيب حتى جاءه رسالتان من بلدين قال انه لم يرد منهما شكاوى من الامهات إحداهما بامضاء «ابنة قبطية» والثانية بامضاء «ابنة شاكرة» وفحوى الرسالتين واحد وهو ان الذنب فى كل ماتشكو منه الامهات عليهن وعلى الآباء في عدم العناية بتربية البنات والاعتراف بأن التعليم لايغني عن التربية شيئاً وان كان فى نفسه نافعاً.

ولا يزال المقطم يثير كوامن الرغبات، ويحرك سواكن هم البنات، ونظن انه اذا تناول الكنائن، وبعثرت الدفائن، وقار فى الجدل التنور، وحصل مافى الصدور، فانه لايكتب فى الجرائد شيء يخرج عن معنى ماكتب الا ان تفتخر بنت بأنها أصلحت